ليلة رأس السنة

لامين مشرق

الجو متلبد بغيوم كثيفة تحجب عن الارض انوار النجوم ، وبيوت نيويورك منغطاة بدثرة صفيقة من الظلام ، والمطر يهطل بغزارة فكأن السماء صارت « مصفاة » والله حوّل اليها مجاري جنته

في احد الشوارع بيت تتدفق منه ضجة عظيمة تشبه صوت معلمنة او خرير شلال . قد يسمعها المارون في الشوارع بوضوح ولكنهم لا يتمكنون من رؤية مصادرها لان الابواب والنوافذ محكمة الاقفال حتى ليكاد النور يعجز عن التسرب خلال شقوقها . وما هي هذه الضجة ؟ هي اصوات آدمية متنوعة يتخللها اصوات حجار الدومنو والطاولة والورق ممزوجة برنين كؤوس الشراب ومن وقت الى آخر تخترق الجميع صيحة من فم قونوغراف حسن الصوت فيرد عليها الجمع — « الله يا مطرب »

للشرقي عموماً والسوري خصوصاً طريقة خصوصية يتوخاها لاظهار عواطفه في مجالس الطرب — حتى وفي مجالس الحزن ايضاً وهي — الضجة . « الضجة » عندنا تعني « الطرب » فالمجلس بلا ضجة ليس مجلساً ولا اصحابه باهل « كيف » ولو افرغوا في بطونهم كلما تستخرج مدينة زحلة من العرق .

وليس ذلك فقط ولكن هناك امراً يزيد على امر الضجة وهو — جهل المكان والزمان المناسبين للطرب . من امثال ذلك ما اذكره والذكرى تؤلمني عن حادثة جرت امامي في مطعم سوري في نيويورك . الوقت الظهر والمطعم مكتظ بالزائرين . هناك في القرنة الى طاولة صغيرة جلس اربعة رجال يشربون الويسكي فاتحة للغناء . لم تمض بضع دقائق حتى احمرت عيونهم وانتفخت اوداجهم ونسوا انهم جاءوا للاكل لا للشرب فجعلوا يطلبون الكأس تلو الاخرى والخادم يزيدهم حتى امتلأت ادمغتهم ببخار المسكر وهاجت قريحة احدهم (احسبهم صوتاً بالطبع) فصاح من اعماق قلبه ببيت من العتابا ذهبت من ذاكرتي حرفيته وبقي شيء من معناه وهو ان الرجل كان ناسياً حبيبته فاتت الكأس وذكرته بها (معنى جميل !) ومما زاد في الطين بلة وزاد ايضاً في تفتق قريحته وحماسته وجود سيدتين اميركيتين دعاهما احد السوريين لتذوقا لذة المآكل الشرقية ، فان عبثه الحمراوين لم تتحولا عنهما مع انهما لم تلتفتا اليه الا حين صرخ متغنياً ببيت العتابا وارتج المطعم بصداه . ليتأمل القارىء مبلغ الدهشة التي استولت على السيدتين والخجل الذي غمر صاحب الدعوة ....!

وبما عرف القارىء من وصف البيت المذكور انه قهوة . تدخل وترى قاعة مستطيلة صفت فيها الطاولات صفوفاً اربعة تبتدىء من الباب الخارجي وتنتهي قرب المطبخ في الطرف الداخلي الصف الواحد يحتوي على خمس طاولات ، والطاولة اربعة رجال ، ففي القهوة اذاً عشرون زائراً .

اختار من العشرين طاولة اربعا فقط فأقف وإياكم بضع دقائق حول كل منها .

الطاولة الاولى . اربعة شبان اكبرهم لا يتجاوز العشرين سنة يلعبون بالورق .

— « اشلح يا بطرس اشلح - بدي اخطف روح هالاس »

— « ما فشرت . اصي بيقص رقبتك يا حمار »

— « حمار مثلك . اشلح تشوف . »

— « تشوف العمى . خذ هالخيار المكرفح »

— « مو عيب . انا باخذا بنت مثل قلب الصباح . خليه نشربك سركيس »

— « سد نيعك . شريكي منو فضلة عشاك . بستوني اشلحوا »

— « الله الله كيف بيتقطع فينا الليله بطرس بك . من اين حضرة الشب ؟ »

— « بستوني اشلحوا . طق . طق . طق »

— « بستوني اشلحوا . طق . طق . طق »

— « خمسين . عدوا الورق وروحوا تعلموا لعب الداكا »

— « ايش ؟ »

— « طلعنا اليرتيتا . ادفعوا تنشوف »

هنا يأخذ كل من المغلوبين من جيبه خمس سنتات ويقدمها للغالب .

وبعد ان يتم الدفع يصرخ بطرس « اليزنيا بعشر ستات » فيرد الباقون « بعشره بعشره »

الطاولة الثانية . الفرق بينها وبين الاولى ان الشبان هنا اكبر سناً وانهم يلعبون بالدومنو بدلاً من الورق ويستعملون الريالات بدلاً من الستات

— « زهري هالليله ملعون »

— « وزهري انا ألعن »

— « حط ريالك يا منصور »

— « خذ . ريتك تنحط »

— « من هلق ورايح الدق بريالين »

— « بريالين بشيطانين . خلصونا طلع الصبح »

— « وطلعت روح منصور من الخساره »

— « واصفرت خلقتو . يا ريتهم سود مكسور لانه ما انتصر ولا مرة »

— « جهار وباك . حياك ابليس وبياك »

— « ساه وبنج . حياك ابليس و... رة... وخ... وش... »

— « قه قه قه قه . خانت حنا القريحه . يا حيف على الشاعر »

— « شاش . هات يا زعرهات . اهلاً . براڤو . شرفني الشاش . مكرّت يا اصحاب . عدوا »

— « مسكين منصور الدفع ريالين هالمره »

بحث منصور في جيبه فاخرج ريالين وضعهما على الطاولة بهيأة منكسرة

ومشى الى كرسي في طرف القاعة الداخلي وانطرح بيأس

— « ايش بالك يا منصور ؟ »

— « بطلت اللعب . هذا آخر ما معي »

استلفت الان انظار القرآء الى شاب منفرد بنفسه عن الحاضرين في منتهى الغرفة لا يتكلم ولا يتحرك . وقد كان يشرب كأساً من البيرة فلما رأى منصور وهو صديقه قادماً وطارحاً بنفسه على الكرسي ترك الكأس وقام فجلس بقربه وجعل يحادثه بهدوء

الطاولة الثالثة . حولها اربعة يدخنون ويشربون القهوة ويتكلمون بصوت منخفض اخف لغطاً من الباقين . ويستدل من لهجتهم انهم من تلامذة المدارس وفتيان العلم ومن طبقة عالية في الشعب

— اما الان وقد اجتمعنا يا اصحاب فدعونا نقضي هذه الليلة كما يرام . هات يا فريد واخبرنا ماذا حدث لك في حياتك من حوادث الغرام فان في صدرك والحق يقال روايات تفوق غصن البان والاميرة فوستا ومنائر الجن بحوادثها العجيبة .

— لقد غلطت يا حبيب فان الروائي الكبير بيننا الليلة هو حليم وليس انا . وطالما قص علي المحاسب عن انتصاراته في معارك الحب

— انا ؟ لا لا . بينكم من هو افصح مني . ليتكلم نسيم فحديثه لطيف كالنسيم .

— والله قد زدتم في الرتة حتى انقطعتم . يكفيكم لالا وخنجا . « مشوها

وما بتفرق مين بيندي حاجي بقا ..

هنا يتنحنح حليم ويجلس مستعداً للكلام

الجميع — حليم يرائو حليم . تكلم تكلم

حليم — اما وقد وقع علي اختياركم فانني اشترط عليكم ان تضعوا امامي علبة من السيكارات فانني ارى سيكاراتي قد نفدت كلها

الجميع — يا ولد . هات علبة برنس

حليم — (وقد اشعل سيكارة ومصها) عندي ايها الاصدقاء دور صغير مثلثه موخراً ولا يزال طي الكتمان سأبوح به اليكم راجياً ان تدفنوه في اعماق صدوركم لان افشاءه يضر بسمعتي

الجميع — تكلم . كلنا في الهوى سوا

حليم — من مدة عشرة اشهر او اكثر بقليل حول الساعة السادسة في المساء كنت ماراً بقرب احدى البنايات فاذا بفتاة جميلة الصورة جداً (صامتة الطبع بالطبع) قد وصلت ومدت يدها لاخذها قائلة « ثانك يو » بلهجة ضعيفة عرفت منها ومن ملامح الفتاة انها سورية . لا تزوم لان اخبركم انني عرفتها بنفسي ومشيت معها الى « الصبواي » ولا لزوم ايضاً بان افصل لكم كيف ملكت صداقتها بعد ايام قليلة بمروري في الوقت ومرافقتي اياها الى القطار ثم الى بيتها بعد ان تمكنت الصداقة بيننا . الخلاصة انه لم يمض شهر واحد حتى بدأت الصداقة بالتحول الى حب ففي مساء يوم سبت من

اذار المتسرع تواعدنا على اللقاء في مكان معين ثم للذهاب سوية الى التياترو لحضور مشاهد جديدة اعلنتها الجرائد ذلك الاسبوع . الفتاة يتيمة الوالدين وليس لها اقرباء هنا ولذلك فقد كانت تسكن مع عائلة اميركية في بيت لا يقطنه سوريون وهذا مما مهد طرق المواصلة بيننا بحرية . أتقدرون انني تصوروا مبلغ لذتي حينما كنا جالسين جنباً الى جنب في ظلام التياترو كم شعرت بالنار تتأجج في صدري وكم هممت ان اضمها وارتوي من تقبيل شفتيها . الله على تلك الدقائق اللذيذة . واه لو رأيتم وجهها حينما خرجنا من التياترو واحس ببرودة الطقس كيف تحول بياضه الى حمرة بديعة . أرأيتم تفاح كليفورنيا الاحمر الكبير ؟ فشر الف قشرة عند تلك الوجنتين الوردتين . كان البرد شديداً في الشارع حينما خرجنا وكانت الساعة الثامنة مساء والليلة مظلمة . ويظهر ان الانتقال الفجائي من حرارة الداخل الى برودة الخارج اثر على صاحبتي فرأيتها ترتجف بشدة واسنانها تصطك بسرعة . ولذلك اقترحت بعد المسافة الطويلة ان نذهب الى محل قريب لتشرب جرعة من الوسكي فيزول عنها ارتعاجها . دخلنا الغرفة والمسكينة لا تعرف اين هي لشدة آلم الصداع في رأسها . وبعد ان اتى الخادم بطاولة الشراب واقفل الباب جلست الى جانبها وشرعت اسقيها الكأس بعد الاخرى وهي ترفض اولاً ثم تقبل مكرهة لمسايرتي . لكن الوسكي زادت في آلامها وبينما انا اصب الكأس الاخير ارتجفت بعنف ومالت على المتكأ وقد غابت عن الصواب

هنا بلغ الثلاثة ريقهم وزادوا اصغاء . وصمت حليم برهة متأملاً

بدخان سيكارته المتصاعد نحو السقف ثم ضحك قليلاً واردف — لم أرها بعد تلك الليلة . وهي الصيدة الوحيدة التي افلتت من يدي . مسكينة ما اطهرها وما اشد صفاء قلبها

فريد — (مبتسماً) افضل العزاء والسلوان لك يا حليم

حبيب — (ضاحكاً) يحق لك الفخر والمباهاة بانتصاراتك على الجنس اللطيف .

نسيم — (غامزاً بطرفه) من سوريات واميركيات وكل اجناس الشعوب .

حليم — (طاوياً الورقة بعظمة) جاء دوركم . هاتوا يا كدعان اخبرنا يا نسيم عن صديقتك الاميركية الشقراء .

الطاولة الرابعة . اربعة قد لعبت بروسهم ابنة العنب

انطون — (مترنحاً) « . . . وسليمان الحكيم عليه السلام قال — قليلاً من الخمر يفرح قلب الانسان — ومين بعد لازم نصدق اذا ما صدقنا عما سليمان — كل القديسين رجال التوراة علمونا الشرب واولهم جدنا المرحوم نوح يرحم عضامو فتح سكره وخزق تيابو وترك النسمة تلحق النسمين — وبالانجيل ايش بيقولوا عن المسيح ؟ ما حول الموي لخمر احمر بعرس قانا الجليل تايشربوا الشباب ويشبعوا ؟ واليوم بيجيك شي قسيس منتوف اللحيه وبيقلك يا ابني لا تسكر الله ما بيريد — ولو — الله عينو ضيقه لهالدرجه — عنده خمر وبسط كثير بالسما وما بيلتفت عهالقنينتين اللي ما بيشبعوا زلمي — قولولي بتكذب ! — وتنحسب انو ربنا طميع — وشايفلكم هيك ارجح —

منعزبو ومنكر سوا — ايش يا ملحم ؟ — واذا ... رقمي ومتين منه لا يرضى — يحرق دين ... يا ربي بلا خطيه عهالعكرة الصبح — خليه يعمل اللي بعقلو ..»

ملحم — « دستور بكلمه بلا قطعاً بحديثك — وتصديقاً لكلامك كان عنا بسيته جابت بجرو — ولمن كبر صار يغلبها — رينا جابنا ؟ مظبوط — رينا خلقنا ؟ عاغيوني — ولكن نحنا كبرنا — وبعد كل عالشرح خلونا من المذكور — نحنا ملايين وهو واحد — والمسيح عليه السلام قال — ضعيفين بيغلبوا قوي — لا تواخذوني يا اصحاب انا بحب عالرجّال — حكياتو بيعجبوني — بيعجبوني مثل كاس العرق —

مزكن يا اخوان — كاسك يا خيي مخول — آي وين كنا وصلنا ؟ العرق، نعم . العرق — وتصديقاً لكلامكم كان في عجل بضيعتنا عند بوجريش — قلت عاخابية العرق وما شال بوزو ناخلصها — اذا كانت البقر بتسكر ايش بتعمل البشر ؟ — ربتني اعمى من التنين ان كنت عن اكذب — ولكن الحمد لله عينيي طيبين — ولو ما هيك ما دخلت عهالبلاد — الله أن ظلمنا بالجزيره كيف بقت قلوبنا تدق من خوف الرجعه — وتصديقاً لكلامكم ما حدا منا رجع غير واحد من بتغرين — مسكين عالك الرجال كان عليه صوت مثل صوت القصب و ... »

مخول — « يردون . بترجالك ... البتغريبتي ما رجع ولا شي — صحيح بقي يومين بالجزيره وعاد فلتوه واليوم قاعد بالسوت بلوسفل كنتا كي —

يا عيني ما احلى هالك المدينه — اسألوا زعيتر بيعرفها — كلمك يا زعيتر — محبه يا اخوان — زعيتر ؟ نعم زعيتر رجال من اليعجبو كم — مرة بعيد مار الياس عليه السلام قام الجرن الكبير لفوق راسو و كانت كل شباب انفرد الكدعان موجوده — الصليب حولو — وحملة الحطب اللي كان يشاحها مثل رغيف الخبز ما في ابن مرا بيقوم فيها — يا روحي ما احلى هالك الايام — وبطوس الطيون كان عندو جمل اشتهرت ضيعتنا فيه متلما اشتهرت بزعيتر — ليك يا خبي انطون في قشه بكاسك — يخرب بيت هالصبي ما بيجيب شي نضيف — واذا كان ما بيجيب شي نضيف فالمعنى انو مجوي — واذا كان مجوي فالمعنى انو مقلعط — وان كان مقلعط لازملو غسله بنهر الاردن — وان ما تغسل بكسر دين راسو يهال ....»

زعيتر — « هدي حالك يا خبي مخول الصبي ما عليه حق لكن الحق عهالختياره الملعونه ام شاهين اللي بتغسل اواعي القهوه — والله لو ما كانت مرآ كنت بحني كفي بدمها — المهلهل حتى كفو بدم جساس ابن مرة — المهلهل بطل صحيح ولكن كليب الله يرحم عضامو كان ابرع بضرب السيف — مين بيعرف وصية كليب لاخوه اللي كتبها بالدم عالبلاطه ؟ — البلاطه البلاطه الله ما اسرع الفكر — تذكرت البلاطه اللي كنت اقعد عليها انا وحبيبتي طروز عند نبع الغوار — آه يا اصحاب يلمن هالايام اللي وصلنا ليها — يا هل ترى مترجع لبلادنا ومنشوف حبابنا ؟ — الله يحرق شوارب عبدالحميد اللي دخلنا بهالحرب و ....»

انطون - « هش هش . هدي جحشتك يا فيلسوف زعيتر — عبدالحميد محبوس من زمان وملك تركيا اليوم مدحت باشا »

— « بتكدب يا حمار — مين هاللي بيقدر يحبس السلطان »

— « حمار متلك يا تيس — لا تجفي كلامك »

— « تيس ابوك يا ابن كيت وكيت — بدي اخلع نيمك بهالصرماية »

— « انت . يا برغوت المزيله ؟— جرب حالك يا خنزير »

هنا يهجم زعيتر على انطون فينفصل مخول وملحم بينهما وبعد القيل والقال وتجمهر كل من في القهوة تعود الياه الى مجاريها

— « يا زعيتر بوس خيك انطون . يا انطون بوس خيك زعيتر »

ومضى كل شيء . ولكن قبل ان يرجع الجميع الى مجالسهم وقبل ان تنقرط حلقتهم المجتمعة حول المتخاصمين وقف الشاب المنفرد الذي اشرنا اليه سابقاً (الذي ترك كأس البيرة وجلس بقرب منصور يحادثه) وقال بصوت جهوري — « ايها الاخوان جميعاً »

تحولت الوجوه حالاً الى جهة الصوت واستقرت العيون جميعها على ذاك الشاب الواقف بهيأة الخطيب فردد —

— ايها الاخوان الاعزاء . ربما ازعجت خواطركم باخذي من اوقات لهوكم بضع دقائق ولكن الليل طويل ونهار غد بطالة فلا ينتقص كثير من سعادتكم . لست اقصد ايها الاخوان ان القي عليكم خطابا لانني اولاً لست من اهل الخطابة وثانياً ليس هذا المحل لهذه الغاية . وانما قصدي ان ابدي

لكم رأياً عساكم توافقوني عليه . فقد خطر ببالي اننا نقدر ان نصرف هذه الليلة بصورة غير التي ابتدأنا بها وهي بمرئي افضل واكثر نفعاً . فما قولكم لو جمعنا الكراسي في نقطة واحدة بشكل دائرة وجلسنا جميعنا الواحد بجانب الاخر ولعبنا لعبة « المركب » وفرضنا على كل مغلوب عشرة سنوت يدفعها كلما اخطأ مرة ؟ في هذه القاعة ثمانون فرداً فاذا غلب كل منا مرة واحدة كان المجموع ثمانية ريالات نقدمها غداً الى لجنة اعانة المنكوبين . فبهذه الطريقة ننفع وننتفع . ننفع اهلنا البائسين في الوطن ونساعد في حفظ حياتهم وننتفع من وجهين الاول اننا نكسب اجرهم ونعود نفوسنا على الشعور الحسن والثاني اننا نريح اجسادنا من وطأة المشروبات المضرة ونتلاهى عن الكلام القبيح

قه قه قه قه ... صرخ الجميع ضاحكين وامتلأت القاعة حالاً بضجة الاستهزاء والصفير و « الهوبرة »

— « نطقت حمارة بلعام بالآخر تشكر الرب »

— « عاد الناسك من قرنتو للعالم . كيف حال القرنه من صوبك ياعم »

— « حكي سليم الساكت ومدوي حمار مين بدو يموت »

— « براڤو سليم بيك . اجاد الاخرس »

— « اتركو الخطيب يخطب يا ناس . ربنا بعتت « الكركوز » بوقتو »

— « اهلاً بلويد جورج . اهلاً بيرابو . اهلاً بالحج سليم »

خطر ببال سليم ان يترك القاعة هرباً من هذا الاستهزاء المر واسرعت دقات قلبه وتحلّب العرق من اطرافه وارتجفت اعصابه خجلاً وغضباً .

ولو ان غيره في محله لسكت حالاً وذهب لكنه لم يكن ممن ينثني عزمهم لاول عثرة بل بقي في قلبه بصيص من الامل فجمع افكاره المبعثرة واردف بصوت شديد ارغم القوم على السكوت —

— لماذا تضحكون ايها الاخوان وليس في كلامي ما يهيج الضحك ؟ انا قلت لكم اننا نقدر ان نقضي هذه الليلة بطريقة اشرف وافضل من طريقتكم ولا ازال اردد كلامي · عار علي وعليكم ان نصرف الريالات الكثيرة على بطوننا وملذاتنا الجسدية واهالينا يقرعون الابواب طلباً للقوت · عار علينا ان تأكل فوق الشبع ما يحفظ حياة الالوف من الموت · عار والف عار ان نستقبل العام الجديد بتهاليل السرور واللهو والبطر بينما امهاتنا واخواتنا واخواتنا واباؤنا واقرباؤنا وكل من لنا تحت هذه الشمس ينظرون اليه كعام الويل والفناء يعيون دامعة وبطون جائعة وقلوب منكسرة ومهج منفطرة وآمال ذاوية ونفوس خاوية ترتجف هول الموت الراقص حولها يختلف منها كل يوم وليمة دامية · على ماذا تضحكون ؟ أعلى افواه الصغار المتفتحة كأفواه العصافير تطلب طعاماً فلا تعطاه ؟ بماذا تستهزأون ؟ أبتوسلات امهاتكم المحلولات الشعور المتحلات الظهور ام بصراخ اخواتكم المهتوكات الاعراض على قارعة الطريق ؟ يا لشهوة الرجال يا لهمة الابطال ! اكذا يجازي الابناء والديهم · اكذا تسون مساقط رؤوسكم ؟

انطون — « ما سقط غير راسك يا حمار · نحنا روسا قويه »

زعيتر — « والله لولا القسمه لمالكاس المليان كنت بفرجيك يا كلب

العرب مين بيسقط واسو »

حبيب — « حاجي بقا يا بارد · عدنك عسل قرفت نفوسنا »

فريد — « وتمزقت مصارينا يا هوا الاصفر · انزل برمو رقبتك »

حليم — « بطل يا مجنون نحنا منعرف اهلنا محتاجين من دون وعظتك · روح لعند صاحبتك لبيبه بركي بتعطيك « بسطرينه » احم احم »

عنا لم يعد في طاقة سليم الاحتمال والصبر وانطفأ آخر بصيص امل من ذلك القلب الكبير فاطلق لسانه العنان وصاح —

— انا اذهب ؟ لا · ليس الان ولكن بعد ان ابصق في وجوهكم ايها الصعاليك · بدأت بالكلام وساكمل لان ضجيجكم الدنيء يعجز عن اسكات صوت الحق والشرف · اتيت هذه الليلة لاعلمكم درساً باللطف فلم تتعلموا هكذا الحمير لا تطيع الا بالعصا · جئت اتخذكم لي اصدقاء فقابلتموني بالعداء · هكذا الجهال يبدلون الصداقة بالعداوة اينما حلوا · حاولت ان اجعل منكم رجالاً محترمين فابيتم الا ان تظلوا صعاليك استهزاء وخساسة · فليكن كما تريدون · ولكن افتكروا ان كانت لكم رؤوس تفتكر واشعروا ان كانت لكم قلوب تشعر انكم لا تهزأون بي هذه الليلة ولكنكم تهزأون بوطنكم وبامتكم وبنفوسكم · من انا ؟ انا لست الا آلة تردد على مسامعكم الين القوم البائسين فاذا اعتبرتم قولي اعتبرتموهم وان احتقرتموه احتقرتموهم واما انا فاظل خارجاً عما تقولون وتفعلون · ايها الجهال ! ضحكتم مني اولاً لسكوتي ولكن أليس السكوت افضل من عواصف الكلام البذيء الفارغ ؟ ثم عدتم

فضحكتم لكلامي ولكن أليس كلامي اشرف من عربدة السكر ولعنات القمار ؟ أليست الاحاديث الوطنية ارفع من قصص العشق وتذكارات الغرام الفاسد ؟ أليس عمل الاحسان اسمى من لعب الورق والنرد ومن التدخين والتحشيش ؟ تقولون انها ليلة رأس السنة وانها ليلة ثمينة يجب ان تغتنموها حسن . ولكنكم قد اضعتموها فهل تعرفون ؟ ان الليلة التي تُنقضى بالتجديف على الخالق والاستهزاء بآلام الوطن لهي وخيمة بخسة — وليس هذا فقط — بل هي رجسة دنسة . وانتم انتم يختموها وانتم انتم دنستموها . الفرح ؟ وما هو الفرح ؟ هو عاطفة عمياء قبيحة تشوه معاني النفس الجميلة . هو شعور انانية يقف فاصلاً بين القلب وبين اشعة شمس الفضيلة والمحبة . هو جنون في الروح يحول نسماتها اللطيفة الى عواصف ثوّارة تسفي في عيونها الرماد والرمال . ولكنكم قد تعودتم على الاذى فانتم لا تشعرون وقد ملأت عواصف الفرح الكاذب عيونكم برمادها ورمالها فانتم لا تبصرون . اهذا هو الفرح عندكم يا عميان ؟ اهو ان تسكروا وتدخنوا وتلعبوا وتتخاصموا وتصيحوا وتقلقوا الحي بضجيجكم ؟ اهو ان تعلقوا بطونكم وتسمنوا اجسادكم وتلتذوا بكل ما لكم من الحواس اللحمية القذرة ؟ حل العيش شحكم يا خنازير الشحم واللحم وسمت الحياة عن صغارتكم يا بطون الاكل والشراب . انتم اموات والموتى لا يشعرون .

الضجة تشتد واللغط يتزايد والسكارى الاربعة يهمون بالوصول الى المتكلم لاسكاته فيشعرون بالكراسي ويسقطون . الشتائم تنصب من كل

فم على رأس سليم لكنه لا يسمع ولا يرى . يقف لحظة لتجديد نفسه المنقطع ثم يعود متدفقاً بصوت يتهدج حماسة وهياجاً —

— ماذا ؟ اتودون اسكاتي . اتحاولون قتالي ؟ تقدموا يا جبناء ان استطعتم . تعالوا اقطعوا لساني واذبحوني ثم ارجموني ثم اصلبوني . انا عدوكم . انا عدو الجبانة والخساسة وسفالة النفس أفهمتم ؟ تعالوا انتقموا لانفسكم فاموت شهيداً كالمسيح واستفانوس ومحمد المصطفى . تعالوا احرقوا جسدي الحقير ثم اطحنوه وذروه في الهواء فاموت كجان دارك الباسلة ولكن لا . انكم لا تستطيعون ان تهبوني هذه النعمة . من انتم ايها الثعالب؟ انتم حيوانات دنيئة قذرة تعيش بالحيلة والتذلل . انتم دبابات خسيفة خبيثة خائفة تسرح في حلك الليل لتباغت فريستها بايادي الغدر . ما هي الشجاعة في عرفكم يا جبناء ؟ الشجاعة ليست في التجديف على الخالق والكفران بالحقيقة . وليست في احتقار الناس والاستهزاء بكلامهم وليست في اجتراع قناني الوسكي ليقال عنكم « شربين ما شاء الله » وليست في حمل الاثقال والمباطحة والمكابدة كما هي عادة الاكباش والثيران والجمال وليست في التعدي على الناس بلا سبب وليست في مخادعة البنات المسكينات وغدرهن بطرق الزوغ والفساد . ان الشجاعة — الشجاعة الحقيقية — هي المحاماة عن الضعيف والانتصار للحق والتمرد على كل قوة مستبدة . ان الشجاعة هي الثقة بالنفس والاعتراف بالخطأ . ان الشجاعة هي حفظ الجميل ورد المعروف والمحافظة للملهوف . ان الشجاعة هي الموت في الدفاع عن الوطن —

الوطن — الوطن ...

هنا تترقرق دمعة في عين سليم فيسمعها قبل ان تنحدر ويردف —

هناك ! هناك ! تحت سحب الدخان وبروق المدافع ورعودها وبين قصفات صواعق الموت ووثبات جحافل الويل والفناء ، هناك ! هناك وطنكم ، ارض سقتها ايادي الخيانة غيوثاً من الدم الاحمر بدلاً من غيوث السماء واطعمتها لحوم البشر بدلاً من سماد المواشي فهي يابسة عقيمة جرداء ، غلتها الشوك والقطرب مكان الحنطة والشعير والعوسج والعليق بعد العنب والتين والزيتون ، هذه بلادكم ، اواه ، وامة فيها تتراكض الى هنا وهناك جائعة خائرة خائفة تلتهم في طريقها الاعشاب اليابسة ممزوجة بالتراب ثم تسقط في آلامها وتموت ، هذه امتكم ، هؤلاء امهاتكم وآباؤكم واخوتكم وذروكم يا تولاء نيويورك ، نفوس يائسة ، ارواح متكسرة ، قلوب منمحقة ، اجسام متهدمة ، شبان على المشانق متدلية ، كهول على النطع مذبوحة ، نساء كالاطيلة يقرعن الصدور ويقتلعن الشعور ، صبايا كالملائكة يتخبطن في ايدي شياطين الشهوات متوسلات متذللات مستغيثات صارخات ، اولاد كالاشباح يئنون في زوايا البيوت مفكرين بقشور البرتقال وفضلات الارز كما يفكر الفريق بروس الجبال ، شعب من لحم ودم يعاني آلام النزاع ويتخبط في بحار من دمه بلا نصير ولا امل ! فما انتم هنا فاعلون ؟ الجوع يدفعهم الى البحر والبحر يقذفهم الى الصحراء والصحراء ترجعهم الى الديار الخالية وهناك بين السيف والنطع والمشنقة والصلب والطوى والرصاص

والفضيحة والتعذيب. يتقول ستسلمين خائفين صامتين وينظرون الى السماء محدقين باطرافها الواسعة ومن وقت الى آخر يلتفتون الى مغرب الشمس ويتمعنون في حدود البحر البعيدة عليهم ان يروا ولو نقطة سوداء يعلقون بها نفوسهم الواقفة بين الموت والحياة . ولكن واأسفاه ! ان من يعلقون بهم نفوسهم يفرحون بليلة رأس السنة ويتلذذون بالمأكول والمشروب ويتلاهون عن ارواح تسعدها كلمة من افواههم وتحييها كسرة من فضلاتهم . يا للكران الجميل ! يا لحسابة النفوس . ارض شربتم ماءها ونشقتم هواءها ، وحنتكم ربوعها واسعدكم ربيعها ، تصرخ اليكم فلا تسمعون ، وتمد نحوكم اذرعها فلا تنظرون . ام ولدتكم باوجاعها ، وغذتكم بلبنها ، وربتكم بآلامها ، واب اطعمكم دماء القلب ، وسقاكم عرق الجبين ، واخ صغير يذكركم مع ذكر الله ويتشوق لرؤيا وجوهكم ولو في الحلم ، واخت بللت سدرها دموعها ، وطال ضناها وقل هجوعها ، تذكركم بحرقة وحنين ، وتصلي قارعة صدرها لرجوع الغائبين ، يشكون اليكم آلامهم فتضحكون ، ويبسطون لديكم اشواقهم واحزانهم فتهزأون ! لو كانت لكم ذرة من شعور الانسان ، لو كانت لكم حبة من الشرف لتقلتم للجبال اهبطي علينا وانهار ابتلعينا . لو كنتم بشراً لقضيتم هذه الليلة جاثين على ركبكم في الشوارع صامتين صمت الحزن العميق مشاركين امكم الجانية بتضرعاتها ، مشاطرينها بعض آلامها وعذاباتها . ولكن لا فانكم لن تفعلوا واذا كانت حماة الشرق مزالكف خونة امثالكم وكيانه من كيانكم فلعنت وليتقرض قبل ان تدنسه

منة الخائنين .

اضحكوا يا كلاب . اضحكوا يا خنازير . اضحكوا يا جراثيم كل دناءة وخساسة ومذلة وقذارة في الوجود . ولكن التاريخ سيسطر لكم ذكراً يبصق عليه اولادكم ويلعنه اولاد اولادكم . وستلعنكم الحياة كما لعنت قابين وستنبذكم الامم وتقبحكم الشعوب فتحيون هاربين في الارض عائمين على وجوهكم ضاربين في البراري والقفار لا تعرفون وطناً ولا يعترف بكم وطن . حينئذٍ لا يهنيء واحدكم اخاه بعام جديد بل تصبح ليالي رومزس السنين سهاماً من نار تخترق قلوبكم وسيوفاً من لهيب تقطع احشاءكم واشواك غصص تدمي حناجركم . يومئذٍ تأكلون خبزكم معجوناً بالدم وتشربون مياهكم ممزوجة بالعلقم . يومئذٍ لا تضحكون ايضاً ايها الضاحكون

وخرج

. . . .

في مساء اليوم التالي التقى سليم باحد معارفه في الشارع فامسكه الاخير ووقف متفرساً في وجهه بطريقة مدهشة . وبعد دقيقة مضت بالسكوت تاركة سليم باشد الحيرة والاستغراب قال — « سليم ! اخي . عيوني ! تقبرني ! ايش صابك مبارح ؟ خبروني الناس انو حكمك عارض جنون بالنهوة وضحكت الحاضرين عليك والخبر منتشر اليوم بكل المدينة . خبروني بحياة الله . صحيح ؟ متلما قالوا ؟ »

— نعم صحيح .